

المناخ والسكان في نماذج من الأدب العربي

Climate and Population in Models of Arabic Literature

الأستاذ الدكتور أحمد حمد حميدي النعيمي

Prof. Dr. AHMAD HAMAD AL-NUAIMI

Page | 67

جامعة البلقاء التطبيقية (الأردن)

Al Balqa Applied University (Jordan)

بريد الباحث ahmad.nuaimi@bau.edu.jo

هاتف الباحث +962 792034285

ملخص البحث باللغة العربية

تناولت هذه الدراسة قضايا المناخ والسكان من وجهة نظر عدد من الأدباء العرب في القديم والحديث، ولاحظت الدراسة بأنّ الأدب العربية لم تكن غافلة عن هذه القضايا المصيرية، كما لم تكن غافلة عن ضرورة الحفاظ على البيئة وجمال الطبيعة، وتوصلت الدراسة إلى جملة من النتائج منها أنّ الأدباء والشعراء العرب تعاملوا مع الشجرة كرمز متعدد الاتجاهات قائم على جملة من الصفات، منها الطيبة والسلام والأمن والإيمان.

الكلمات المفتاحية: المناخ، السكان، الأدب العربي، الطبيعة، الأشجار، البحار.

Abstract : This study dealt with climate and population issues from the point of view of a number of Arab writers in ancient and modern times, and the study noted that Arab literature was not oblivious to these fateful issues, nor was it oblivious to the necessity of preserving the environment and the beauty of nature, and the study reached a number of results, including that Arab writers and poets dealt with the tree as a multi-directional symbol based on a number of qualities, including kindness, peace, security and faith.

Keywords : Climate, population, Arabic literature, nature, trees, seas.



المقدمة

تركّت الأدب والفنون تأثيراً كبيراً في نفوس البشر منذ أقدم العصور، فليست الأغاني التي كان يرددتها الفلاحون وهم يحرثون الأرض أو يبذرونها سوى قصائد مغناة، وما أكثر النصوص الأدبية التي كانت تدعى الناس إلى التمسك بأرضهم، والدفاع عنها، وحمايتها بالأرواح والأموال إذا ما تعرضت لغزو خارجي، أو فتنة داخلية.

الأرض عند الأدباء والشعراء هي الأم، وهي الحبّية، وهي الحلم، وهي الصديق، وهي القيمة الكبرى التي تحمل معاني الكبرى والشرف؛ ذلك أنّ الإنسان يحب أرضه سواء أكانت صحراء أو جراء، أو ساحلية أو جبلية.

وقد ظلّ أهل الصحراء على الدوام يحلمون بتحويل أرضهم إلى جنة خضراء، ولا يفكرون بالتخلي عنها على الرغم من اصطدام أحلامهم بشح المياه تارة، وبطبيعة التربة الصحراوية التي لا تقبل كثيراً من أنواع الزراعة تارة

آخرى، وبانشغال سكان الصحراء بالغزو بحثاً عن بقائهم تارة ثلاثة.

وقد استعان الإنسان -سواء في الماضي أو الحاضر- بالشعر كوسيلة لرفع معنوياته، وتوسيع مداركه، والنظر إلى الوجود والكون من زاوية تأملية حيناً، وفلسفية أحياناً أخرى، كما منحه الشعر قدرة على صياغة تجارب الحياة ب قالب محبب إلى النفس؛ وذلك في مسعى منه ليفيد الآخرين من جهة ويخلد في ذهانهم من جهة أخرى.

ولا يختلف الأمر مع الشعر عنه في الأشكال الأدبية النثرية، فكما صاغ الإنسان تجاربه شرعاً صاغها نثراً كذلك، وكما روى قصصه وحكاياته وتجاربه بالشعر رواها بالنشر كذلك.

المناخ في نموذج من القصة العلمية

يعيش إنسان اليوم صراعاً مريضاً مع التغيرات المناخية التي كان هو نفسه سبباً فيها، فسبب حاجته إلى الطعام والغذاء والملابس، وبسبب رغبته في الرفاهية استغل الطبيعة أبغض استغلال، مما جلب له المأساة والكوارث، والنكبات، والأمراض.

ويلخص موقع المناخ والسكان التابع للمحور الإنساني قصة الإنسان مع المناخ منذ تشكيل الوعي البشري إلى اليوم، في محاولة واضحة منه لنقل موضوع المناخ من الدوائر العلمية الضيقة إلى الدوائر الشعبية الواسعة، فيذهب إلى أنه في مزرعة مساحتها 510,100,000 كم² عاشت عائلة صغيرة. كان في المزرعة غابات وأنهار وطعام كثير، وكانت تعيش في المزرعة ملايين الكائنات الأخرى، بعضها صغير جداً لا تقاد تراه العين، وبعضها متوسط، وبعضها كبير يفوق حجمها حجم الإنسان نفسه.

كان الإنسان يتکاثر بسرعة لافتة، وحاجته إلى الطعام تتزايد، فاعتدى على كل ما حوله، حيث أحرق بعض الغابات ليصطاد ما تخلفه الحرائق، وقطع الأشجار ليصنع من بعضها أثاثاً ويتداولاً على بعضها الآخر في الشتاء؛ ولأن المزرعة لم تكن كلها خصبة، فقد سكن بجوار الأنهر، واستوطن الأماكن الخصبة منها.

استمر الإنسان في تدمير الطبيعة ليبني لنفسه بيوتاً على أنقاضها، ومع الأيام اكتشف التجارة واكتشف الآلات، واكتشف المصانع، واكتشف أهمية المال، فصار يستغل المزرعة بلا رحمة، غير مدرك بأن المزرعة محدودة المساحة على الرغم من أنها تبدو كبيرة، فتناقصت الأرضي الخصبة، وبسبب نيرانه المشتعلة، ونيران مصانعه ودخانها، ودخان آلات بدأ حرارة المزرعة في الارتفاع، فانقرضت كائنات، وبدأ هو نفسه يشعر بأن المزرعة تضيق عليه، ومع ذلك لم يتوقف عن إحراق الغابات، وتقطيع أشجارها، وتشييد مصانعه. واليوم يشعر هذا الإنسان بأنه أوصل نفسه إلى الدمار، وعليه معالجة ما خربه ودمره قبل أن تصير المزرعة غير قابلة للحياة، فيفي وينتهي جنسه (1).

السكان في نموذج من القصة العلمية

وكما أدرك الإنسان بأنه سبب في التغيرات المناخية التي باتت تهدد وجوده كله، فقد أدرك أيضاً أنه سبب الزيادة السكانية التي صارت عبئاً ثقيلاً عليه؛ ذلك أن المنزل الذي يعيش فيه عشرة أفراد على سبيل المثال يختلف عن المنزل الذي يعيش فيه خمسة أفراد، حتى لو افترضنا أن دخل الأسرتين متساوي، وفي الحال الأولي سوف تعيش الأسرة بمستوى يعادل نصف معيشة الأسرة الثانية، مما سيحررها من التغذية الجيدة، والتعليم الجيد، والرعاية الصحية الجيدة.

وكما لخص موقع المناخ والسكان حالة المناخ، فقد لخص حالة السكان بأسلوب قصصي، فذهب إلى ما يلي: منذ

زمن موغل في الزمن، وفي بيت كبير عاشت مجموعة من السكان مختلفة الأجناس كعائلة واحدة، كان يحكم العائلة كائن اسمه الإنسان. كان في البيت كل ما يحتاجه سكانه من الطعام والشراب والماء النقي، وكان البيت يتسع لكافه ساكنيه، وكان السكان يعيشون في أمان، ويطوروون أسلوب حياتهم وأحلامهم باستمرار.

مع تزايد السكان بدأت تظهر بعض الخلافات والمشاجرات، وأحياناً الحروب، وبدأ البيت الكبير الآمن يتحول تدريجياً إلى بيت مخيف، لدرجة أن بعض السكان صاروا يحرقون غابة أو جزءاً منها لي libido احتياجاتهم.

وحين شعر الإنسان بأن شقيقه ينافسه إزدادت الخلافات، وصار بعض سكان البيت الكبير يبحثون عن إله يحميه من خدر الطبيعة، ومن قسوتها، ومن غير أخيهم الإنسان، فاختار سكان البيت على شكل الإله وطبيعته، فاختارت كل مجموعة من السكان لنفسها إليها خاصاً بها، غير أن كثيراً من سكان البيت الكبير أرادوا أن يفرضوا إلههم على غيرهم، مما جلب حروباً وصراعات جديدة.

وعلى الرغم من ذلك لم يتوقف سكان البيت الكبير عن تطوير طموحاتهم وأحلامهم، لكنهم مع كل تطور كانوا يزدادون جسعاً، فلم يقف الأمر عند حدود الطعام والماء، ولكنهم رغبوا بالرفاهية أيضاً، فاختاروا الصناعة، واكتشفوا الوقود الأحفوري، والنفط، وصار دخان مصانعهم يلوث البيت الكبير، كما يلوث بحاره وأنهاره وهواءه وترابه، مما جلب الأمراض لهم وللبيت الذي أسودت جدرانه، فعاني السكان من الأوبئة وشح المياه، وتلوثها، وارتفاع درجة حرارة البيت بسبب كثرة مصانعه وآلاته ونيرانه، فمات كثير من نباته، وانقرضت كثير من كائناته غير البشرية. واليوم يجب أن يقوم سكان البيت الكبير بإصلاحه خوفاً على مستقبلهم من الضياع(2).

السكان والمناخ في نماذج شعرية

أدرك الشاعر العربي القديم، كما أدرك الشاعر المعاصر بأن كثرة البشر على الأرض ليست دليلاً على الدوام، وبأن الموارد محدودة في كل الأحوال، فقد كان الإنسان القديم يحصل على طعامه وملابسه بطرق بدائية ما يجعل الزيادة السكانية علينا عليه، على الرغم من عدم كثرة البشر في تلك الأزمنة بعكس حالهم اليوم، فالاليوم على الرغم من التقدم العلمي في إنتاج الغذاء، والدواء، والملابس، ووسائل النقل، وغيرها فإن أعداد البشر تفوق الوصف، والتناقض بينهم صار مقلقاً لأن هذا التناقض غالباً ما يتحول إلى عداوة، فحروب، ومن الأمثلة على إدراك الشاعر القديم لخطورة تزايد أعداد البشر نجد عمرو بن كلثوم يقول في معلقه:

وماء البحر نملؤه سفينًا (3)

ملأنا البر حتى صاق عناً

فمن الواضح أن الشاعر في هذا البيت الشعري يذهب إلى أن أعداد الناس في زمانه صارت فوق الاحتمال، وأن الأرض تضيق بهم. وقد يتساءل سائل: كيف تضيق الأرض بناس ذلك الزمان، وهي التي تكاد تكون خالية قياساً لعدد السكان؟. والجواب: أن الإنسان القديم كان يفتقر إلى التكنولوجيا، ووسائل الاتصال المتقدمة، كما كان يستخدم وسائل نقل بدائية مما يحد من مقدرته على اكتشاف أماكن جديدة واستيطانها، إضافة إلى أن وسائله في الإنتاج كانت ما تزال بدائية، ولعل هذا كان من أهم أسباب الحروب في تلك الأزمنة، فطالما فضل بشر تلك الأزمنة القتال من أجل الاستيلاء على أماكن مكتشفة يعيش فيها غيرهم من البشر على السعي لاكتشاف أماكن جديدة.

وليس عمرو بن كلثوم وحده الذي استشعر الخطر على الحياة البشرية بسبب تصرفات الإنسان غير المدروسة، وإنما هذا أبو العلاء المعري يقول:

كأنَّ الدَّهَرَ بَحْرٌ نَحْنُ فِيهِ

على خَطِّرِ كُرْكَابِ السَّفَيْنِ (4)

والمعري في هذا البيت يشعر أنَّ الخطر يحيط بالإنسان من كل جانب، فالإنسان خَطِّر على الإنسان، والطبيعة تكون أحياناً خَطِّرَة على الإنسان أيضاً، وهذا ما مَنَح شعر المعري نظرة تشاؤمية بشكل عام.

وعن الحال اليوم، فإنَّ الزيادة السكانية العشوائية سبب رئيس في نقص الغذاء في الدول الفقيرة، كما أنها سبب رئيس في تدني مستوى الحياة، وزيادة الفقر والبطالة والجريمة، وكذلك الحال بالنسبة للتغيرات المناخية التي تتسبب في انكماس المحاصيل الزراعية، والاحتباس الحراري، وزيادة التصحر، وانتشار الأمراض والأوبئة، كما تعاني كثير من الدول النامية من زيادة معدلات التسرب من المدرسة مما يتسبب بزيادة أعداد الأفراد الذين يعانون من الجهل، وضعف الإدراك للمشاكل وحلولها.

وإذا كان الإنسان القديم قد أدرك هذه المشاكل، وصاغها شعراً في محاولة منه لتنبيه الناس إليها، وإيجاد الحلول المناسبة لها، فالأولى بالإنسان الحالي أنْ يفعل ذلك، وهو الذي يمتلك قدرات علمية ومعرفية لم تأت لأحد من قبله، كما أنَّ التطور المعرفي والعلمي والتكنولوجي ما زال في تصاعد، ولا تحدده حدود.

إنَّ المتضرر الأكبر من ارتفاع معدلات الزيادة السكانية العشوائية في الدول الفقيرة هم القراء أنفسهم، الذين لا يدركون خطأهم في أغلب الأحوال بسبب نقص التعليم والمعرفة لديهم، وهم اليوم بحاجة إلى التوعية، والإرشاد السليم، حتى لا تحول الدول الفقيرة إلى أوكرار للجريمة، والبطالة، والصراع على لقمة الخبز.

ويسعى الشاعر الفلسطيني محمود درويش إلى حل رومانسي في ما يتعلق بحروب الإنسان مع الإنسان، فيذهب إلى أنَّ جبهة قمح صغيرة يمكن اقتسامها بين متخصصين أو عدوين، وإنها هذه العداوة، فيقول: "ولي السكينة. جبهة القمح الصغيرة

سوف تكفياناً أنا وأخي العدو" (5).

وإذا كان الحديث يجري باستمرار عن إنقاذ الأرواح بسبب فقرها، وجهلها وتخلفها المعرفي، فإنَّ مثل هذا الإنقاذ لا يتم بارسال الغذاء إلى البشر كما لو كانوا متسولين، أو كما لو كانوا كائنات غير بشرية تحتاج إلى الرعاية، ولكن إنقاذ الأرواح يكون من خلال تنقيف هؤلاء القراء، وتدريبهم على إنتاج قوتهم، وتنبيههم إلى أنَّ تكاثرهم العشوائي ليس في مصلحتهم، ولا مصلحة غيرهم.

المناخ وجماليات الطبيعة في نماذج من الشعر

يشكل ديوان الشاعر الأردني فيصل قات، الذي جاء بعنوان: "خمسة أسياف تسكن جسدي" إضافة نوعية في هذا الاتجاه، فالشاعر أردني من أصول شركسية، وقد زار القفقاس ومايكوب، وكتب كثيراً من قصائده متاثراً بالطبيعة الخلابة لبلاده الأصلية، وغالباً ما نجد في شعره مفردات، مثل: الأشجار، الأغصان، الأخضر، الربيع، الأنهر، ومن ذلك -على سبيل المثال- قوله:

"أمشي،

تمشي الأشجار

معي

صنع غابة ظل

Page | 71

وعصافير صغيرة" (6).

كما نجده يقول:

"بين الحزن

وبين الصمت الساكن

في الأشجار

تنتحب الأشجار" (7).

ويقول: "حين توقفنا

عبر رصيف الأشجار

سكن القلب قليلاً

واشتد الضوء

وعانقنا الأمطار" (8).

من الواضح أنّ الشاعر يرى في الطبيعة، والمناخ المعتدل، والأشجار، والأنهار الملاذ الروحي المناسب للإنسان، وكأنّ الطبيعة هي الأم الحقيقة، فقد تكررت مفردة "الأشجار" أربع مرات خلال عدد محدود من الكلمات، ويمكن ملاحظة الأمر كما يلي:

| معدل تكرارها | الكلمة |
|--------------|------------|
| 2 | تمشي، تمشي |
| 4 | الأشجار |
| 1 | غابة |
| 1 | الأمطار |
| 1 | عصافير |

| | |
|---|--------|
| 1 | القلب |
| 1 | العناق |
| 1 | الحزن |
| 1 | الصمت |
| 1 | السكون |

وعلى الرغم من أنّ الغابة هي الحاضنة الكبرى للأشجار، فقد جاء الشاعر على ذكرها مرة واحدة، بينما ظلت مفردة "الأشجار" الأكثر ترداداً بين المفردات، فالشجرة ليست مجرد رمز تعابيري بسيط، ولكنها مجموعة من الرموز في الوقت نفسه، ففي ظلها يجلس العاشق، ومن ثمرها يأكل الناس، وهي التي تمنع انجراف التربة، وتمد الإنسان بالأكسجين؛ باختصار الشجرة تعطي أكثر مما تأخذ، وهي مستودع أسرار للإنسان... وأكثر من ذلك يرى الشاعر الفلسطيني محمود درويش في الشجرة صفات تكاد تقترب من الكمال، فيتمنى لو كان شجرة، وفي ذلك يقول:

" الشجرة أخت الشجرة، أو جارتها الطيبة،

الكبيرة تحنو على الصغيرة، وتمدُّها بما ينقصها

من ظلٍ. والطويلة تحنو على القصيرة،

وترسل إليها طائراً يؤنسها في الليل. لا

شجرة تسْطُو على ثمرة شجرة أخرى، وإن

كانت عاقراً لا تسخر منها. ولم تقتل

شجرة شجرةً ولم تقِدْ حَطَاباً. حين صارت

زورقاً تعلَّمت السباحة. وحين صارت

باباً واصلت المحافظة على الأسرار. وحين صارت

مقدعاً لم تنس سماءها السابقة.

Page | 73

وحين صارت طاولة علمت الشاعر أن لا

يكون حطاباً. الشجرة مغفرةٌ وسهرٌ.

لا تنام ولا تحلم. لكنها تؤتمن على أسرار

الحالمين، تقف على ساقها في الليل والنهار.

تقف احتراماً للعابرين وللسماء. الشجرة

صلوة واقفة. تبتهل إلى فوق. وحين

تحنني قليلاً لل العاصفة، تحنني بجلال راهبة

وتتلعلع إلى فوق... إلى فوق. وقد يمأّ قال

الشاعر "أليت الفتى حجر"، ولحيته قال:

ليت الفتى شجرة" (9).

هنا مفاضلة صريحة بين الشجرة والإنسان

ومن هذه القصيدة نستخرج ما يلي:

| الصفة | الشجرة |
|-------|-------------------|
| وفية | الشجرة أخت الشجرة |

| | |
|--------|---|
| حنونة | تحنو على الصغيرة |
| مسالمة | لا تسطو / لا تقتل |
| محترمة | لا تسخر / تقف احتراماً للعابرين وللسماء |
| مظلومة | صارت مقدعاً / صارت طاولة |
| أمينة | تؤتمن على أسرار الحالين |
| مؤمنة | تبتهل إلى فوق |

هكذا يتضح أن الأدب العربي؛ قديمه وحديثه اهتم بشكل واضح بقضايا المناخ والسكان، ومنحها أبعاداً إنسانية واضحة المعالم، كما استطاع الأدباء والشعراء -منذ قديم الزمان- بأحساسهم العالية، ومقدرتهم على استشراف المستقبل تبليء البشر إلى أنهم لا يسيرون في الطريق الصحيح.

النتائج

وصلت هذه الدراسة إلى النتائج التالية:

- توصل الشعراء والأدباء العرب منذ قديم الزمان إلى أن الزيادة السكانية العشوائية ليست في مصلحة البشرية.
- رأى الشعراء والأدباء العرب بأن الطبيعة هي الأم الحقيقة للبشر.
- ذهب الشعراء والأدباء العرب إلى أن الإنسان يجور على الطبيعة ويظلمها.
- للشجرة خصوصية واضحة في الأدب العربية، بوصفها رمزاً للوفاء، والعطاء، والصمود، والإيمان، وما إلى ذلك.
- يرى الشعراء والأدباء العرب بأن المناخ السليم، والخلالي من الأمراض هو العمق الروحي للإنسان، ومصدر أمنه، ورفاهه، وملاده اللامن.
- تتجسد الإنسانية الحقة في صياغة المعادلة السليمة بين المناخ والسكان.

الهوامش

- (1) انظر، المناخ والسكان، المحور الإنساني العالمي للتنمية والأبحاث:
<https://climateandpopulation.org/2020/11/22/%d8%a7%d9%84%d9%82%d8%b5%d8%a9/> تم التوثيق بتاريخ: 2021/1/12

- (2) انظر، المناخ والسكان، المحور الإنساني:
<https://climateandpopulation.org/2020/11/23/%d8%a7%d9%84%d9%82%d8%b5%d8%a9/>

تم التوثيق بتاريخ 2021/1/5 /8%a9-2

Page | 75

(3) الزوزني، أبو عبدالله الحسين بن أحمد، شرح المعلقات السبع، ط١، الدار العلمية، بيروت، 1992، ص127.

(4) المعربي، أبو العلاء، اللزوميات، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (دبٌ)، ص287.

(5) درويش، محمود، جدارية محمود درويش، رياض الرئيس للكتب والنشر، ط١، بيروت، 2000، ص12.

(6) قات، فيصل، خمسة أسياف تسكن جسدي، فضاءات للنشر والتوزيع، عمان، 2009، 2009، ص122.

(7) السابق، ص129.

(8) السابق، ص211-212.

(9) الديوان، موقع على الانترنت: <https://www.aldiwan.net/poem9695.html>
2021/1/20 تاريخ الاقتباس